من (الإمام الشيخ) حسن البنا .. الى (المفكر المجدد) جمال البنا

خلافنا مع أتباع مدرسة النقل يتلخص في أننا نحتكم الى القرآن.. ونفحص كل القضايا الخلافية بميزان القرآن والعقل .. وهم يحتكمون الى تفسير الفقهاء الاسلاف للقرآن وإلى كتب الروايات والأحاديث التي جاء بها الرواة من أمثال ابي هريرة وكعب الأحبار ووهب بن منبه وعبدالله بن عمر بن العاص وأصبحت غالبة على القرآن !!

حاوره في القاهرة و صنعاء:

أحمد الحبيشي

في غمرة متابعاتي لكتابات مختلف مفكري التيار الإسلامي، تعرفت، عبر القراءة، على المفكر المصري الأستاذ جمال أحمد البنـا، شقيق المرحوم حسن أحمد البنا، إمام ومرشد ومؤسس جماعة الإخوان المسلمين، التي تحولت، فيما بعد، إلى تنظيم دولي ينتشر أعضاؤه في مختلف القارات والدول والحركات والأحزاب السياسية والحكومات والهيئات والمنظمات الدولية، ويؤدون بيعتهم إلى إمام واحد هو المرشد العام في مصر، بينما يخضعون تنظيمياً بعد البيعة، لمكتب الإرشاد الدولي بواسطة مكتب المراقب العام في كل بلد.

عبر قراءة ما تيسر لي من كتب المفكر جمال البنا تكونت لديَّ صورة متكاملة عن شخصيته كمفكر وكإنسان، وذلك من خلال اهتماماته المتميزة بقضايا العمل والعمال والنقابات والتجديد الفقهي، بخلاف ما تميز به الاتجاه العام في حركة التأليف والنشر من قبل معظم المفكرين الإسلاميين الذين أعطوا اهتماماً ملحوظاً ومحورياً لقضايا التاريخ والفقه الإسلامي وأصول الدين من منظور تقليدي، أكثر من الاهتمام ببلورة منظور إسلامي معاصر لقضايا الإنسان في عصر يموج بالتحديات والتناقضات والمشاكل التي تسحق الإنسانية وتشوه حضارتها الحديثة.

في أواخر الثمانينيات من القرن الماضي تعرفت شخصياً ـ ولأول مرة ـ على المفكر جمال البنا أثناء مشاركتي في إحدى فعاليات حركة السلم العالمي .. وفي بداية التسعينيات من ذلك القرن التقيته بالقاهرة عده مرات في منازل بعض الأصدقاء، ثم في منزله المتواضع بحي العباسية في القاهرة حيث أجريت معه حواراً شائقاً ومثيراً نشرته عام 1992م في صحيفة "الوحدة" الأسبوعية التي كنت رئيساً لتحريرها منذ قيام الوحدة عام 1990 م ، وحتى حرب 1994م المشؤومة .

أثار ذلك الحوار جدلاً واسعاً في اليمن آنذاك، وحاول البعض من الإسلاميين اليمنيين الذين لم يكونوا قد عرفوا – بعد – من هو جمال البنا، أن يثيروا غباراً من الشك حول أمانتي المهنية والصحفية في عرض أفكاره التي بدت لهم – في ذلك الوقت – غريبة وغير مألوفة وخارج السرب، بيد أن انتشار كتابات جمال البنا وأفكاره الجديدة والمتميزة على الصعيدين العربي والعالمي منذ النصف الأول من تسعينيات القرن العشرين وحتى الآن، كشفت المسافة الهائلة والفارق الجوهري بين نمط نقدي ومنفتح على العصر بمتغيراته الجديدة يتبناه جمال البنا، وبين نمط آخر يتسم بالجمود العقائدي والكسل الذهني والانغلاق والتعصب والإقامة الدائمة في الماضي، يتبناه خصومه الذين انضم إليهم جزء من الإسلامويين والجماعات السلفية المتشددة والمتطرفة في اليمن !!

والحق أقول : إنني تأثرت شخصياً، ليس فقط بأفكار جمال أحمد البنا وبذلك الحوار الذي تم في منزله بالقاهرة مطلع عام 1992م ، ونشر بعد شهرين في صنعاء على حلقات بعنوان ((الإسلام يريد الإنسان والفقهاء يريدون الإسلام)) وتحديداً في منتصف شهر أبريل من ذلك العام ، بل إنني تأثرت ـ أيضاً ـ بمستوى الحياة المتواضعه التي يعيشها هذا المفكر الكبير في منزله المزدحم بارفف الكتب التي تغطي جدران جميع الغرف الأربع التي تتكون منها شقته القديمة، وبالكتب المتناثرة في مكتبه وصالة الشقة ونوافذ وممرات المنزل الذي يحتوي على شيء بسيط من الأثاث العتيق، ومن ضمنها المكتب الشخصي لشقيقه الأكبر حسن أحمد البنا، وطاولة إصلاح الساعات التي كان يعمل عليها والده الراحل أحمد البنّا الساعاتي لإطعام عائلته وهي الطاولة نفسها التي أنجز عليها الوالد الراحل أحمد البنّا الساعاتي تحقيق وترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل ، والذي نشره بعد الانتهاء منه في () جزءاً، ويعد مرجعاً مهماً من مراجع دارسي التراث الفقهي لمؤسس المذهب الحنبلي.

والحق أقول – أيضاً – : إن تواضع المفكر جمال البنّا في أسلوب ونمط حياته ومستوى معيشته وطريقة تعامله مع زواره وأصدقائه من مختلف التيارات الفكرية، جعلني أسترجع مظاهر الترف والبذخ التي تسيطر على قصور ودور العديد من السياسيين الإسلاميين الذين يختلفون مع جمال البنا في منهج تفكيره وسلوكه إلى درجة الخصومة والعداء ، كما هو حالهم مع مخالفيهم في الفكر والرأي.

وإذ يدهشك جمال أحمد البنّا ببساطته وتواضعه ودمث أخلاقه واستعداده لتقبل الرأي الآخر ومناقشته وسعة أفقه وعمق إطلاعه وانفتاحه على مختلف التيارات الفكرية، فإنه يدهشك – أيضاً – بإيمانه الراسخ بعقيدته الإسلامية وتمسكه بمنهجه الفكري الواقعي، الأمر الذي يضفي على أفكاره وحياته ورؤاه نزعة إنسانية أصيلة لا تجد فيها أي تصنع أو زيف أو ادعاء.

ولأنه كذلك، فقد كان طبيعياً أن ينحاز جمال البنّا إلى الإنسان وليس إلى النصوص التي يفترض أنها ما جاءت إلاَّ لخدمة الإنسان، وأن يتخذ له منهجاً في التفكير والممارسة يجسد من خلاله فهمه للإسلام، باعتباره وسيلة لخدمة الإنسان، مخالفاً بذلك رأي الكثير من الفقهاء الذين لا يرون في الإنسان سوى وسيلة لخدمة وحراسة الدين في الدنيا.

في ديسمبر عام 1920م ولد جمال أحمد البنّا في أسرة ريفية فقيرة .. وفي ديسمبر الماضي عام 2006م احتفل جمال البنّا بعيد ميلاده السادس والثمانين – أطال الله عمره – بعد رحلة طويلة ذاق خلالها مرارة الفقر والعوز والاضطهاد والسجون.

وبالقدر ذاته لم تخل هذه الرحلة من ثمرات الكفاح الشاق، والتي سجل جمال البنّا بواسطتها اسمه الناصع بالمعرفة والتميز والتجدد في ساحة العمل الإسلامي كمفكر ومناضل عمالي، حيث قام بتأليف نحو سبعين مؤلفا، معظمها حول قضايا الفكر والتجديد الفقهي و العمل والعمال، بالإضافة إلى نشاطه في تأسيس عدد من الجمعيات ذات الطابع الإنساني، وتوّج تلك الرحلة بمبادرته في تأسيس الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل ، وتأسيس مؤسسة فوزية وجمال البنّا للإحياء الإسلامي وشروعه في تدشين مشروع تجديد الفقه الإسلامي الذي أنجز منه حتى الآن حوالي خمسة مؤلفات تتعلق بأهم مسائل الفقه المعقدة، ومن ضمنها المرآة والحجاب والجهاد.

في السجون أتيحت لجمال البنّا خبرة تأمل تجارب الإخوان المسلمين والشيوعيين والوفديين وغيرهم، وتزخر حياته بالمواقف التي اختلف فيها مع كل التيارات المتصارعة، مما يفسر نزعته الواقعية في الحكم على ما حوله من شخوص ووقائع وتجارب وإرادات، وقدرته الفذة في الحوار مع أية ظاهرة من الظواهر الواقعية في حياتنا العامة ليس بقصد تحليلها، بل – أيضاً – بقصد إعادة اكتشافها والتعرف عليها من جديد.

في هذا السياق المتميز برزت شخصية جمال أحمد البنّا كمفكر متميز بنزوعه نحو التحرر من كل قيد ومن كل عبودية سوى عبودية الله . ولذلك يتسم فكره بالنزوع إلى الحرية المتسعة اتساع الأفق، وباحترام حق الآخرين في ممارسة حرياتهم التي وهبها الله لهم ، في الوقت الذي يستنكر جمال البنّا أي قيد على "حرية الفكر" باسم الإسلام، ولا يعترف بحد الردة، باعتبار أن مثل هذه القيود تعد أكبر إساءة إلى مفهوم الإسلام للحرية وموقفه منها.

قبل ثلاث سنوات، وتحديداً في النصف الأول من شهر يناير 2007 الماضي، زار المفكر الإسلامي جمال البنّا صنعاء للمشاركة في أعمال المؤتمر الدولي حول الديمقراطية وحقوق الإنسان ودور المحكمة الجنائية الدولية . وقد تشرفت حين كنت رئيساً لتحرير صحيفة (22 مايو) آنذاك بأن زارني المفكر جمال البنا في مكتبي بمقر الصحيفة بالعاصمة صنعاء ، في إطار علاقات صداقة قديمة بدأت في القاهرة اواخر الثمانينيات وتعززت خلال التسعينيات وما زالت باقية حتى اليوم .

وخلال ذلك اللقاء اقترحت إدارة حوار فكري إضافي مع المفكر جمال البنّا يسلط الضوء على أفكاره الجديدة التي تبلورت خلال الفترة الفاصلة بين عام 1992م، الذي جرى فيه الحوار الأول في القاهرة، وبين عام 2004 الذي جرى فيه حوارنا الثاني في صنعاء بعد إثني عشر سنة حافلة بالكثير من المتغيرات والأحداث والتحولات . وقد حضر هذا اللقاء، الذي تم في مكتبي حين كنت رئيسا لتحرير صحيفة 22 مايو في صنعا ، الزميل عبدالله علي صبري، رئيس تحرير ((صوت الشورى)) . ثم وتواصل الحوار بعد ذلك في مقر إقامة المفكر الإسلامي جمال البنا بأحد الفنادق الكبرى بالعاصمة صنعاء ، في الحوار السابق، الذي أجريته مع جمال البنّا في القاهرة بحضور رجل الأعمال اليمني الدكتور عبدالمولى مغلس ونشرته في صحيفة ((الوحدة)) عام 1992م ، كانت الفكرة الرئيسية التي شغلت معظم مساحة الحوار، تلك التي لخصها الأستاذ جمال البنّا بقوله : ((الإسلام يريد الإنسان، والفقهاء يريدون الإسلام)) .. وكان لافتاً للنظر أن يختار ضيفنا الكبير محوراً جديداً لهذا الحوار الجديد الذي جرى في صنعاء بعنوان : ((الفقهاء لا يقدمون الإسلام، بل يقدمون تفسيرهم وتأويلهم للإسلام)) . وحرصت في الحوارين الأول والثاني مع الأساذ جمال البنا على أن أكون محاوراً ومناقشاً وهو ما سيلاحظه القارئ الكريم .

وعلى أثر نشر الجزء الثاني من هذا الحوار في صحيفة (22 مايو) عام 2004 تلقيت سيلا من الاتصالات وقرأت العديد من المقالات تناشدني بأن أجمع هذا الحوار الذي جرى عبر فترتين زمنيتين تفصلهما 12 عاماً في كتاب ، بهدف توثيقه وتسهيل فرص الاطلاع على ما يتضمنه من أفكار مثيرة للجدل والتأمل لأكبر عدد ممكن من القراء والباحثين ، وهو ما دفعني الى التفاعل مع هذه الآراء حيث بدأت بجمع الأجزاء الثلاثة من الحوار الأول الذي تم في القاهرة عام 1992 ونشرته صحيفة (الوحدة) في صنعاء أنداك ، والأجزاء الثلاثة من الحوار الذي تم في صنعاء عام 2004 ونشرته صحيفة (22 مايو) ، بناءً على طلب من موقع (Middle East Transparent) الأليكتروني الذي يبث دراساته وأبحاثه وتقاريره ومقالاته باللغات الفرنسية والانجليزية والعربية من باريس ، تمهيدا لنشره في كتاب سيجد طريقه الى النشر بثلاث لغات قريبا بعنوان : ((الإسلام والإنسان والحرية)) .

في الصفحات التالية سيجد القارئ نفسه مع المفكر الاسلامي الكبير جمال البنا الذي أجرينا معه هذا الحوار عبر محطتين زمنيتين تفصل بينهما إثنتا عشرة عاماً ، الأولى في القاهرة عام 1992 والثانية في صنعاء عام 2004م . وقد تم تفريغ هذا الحوار من أشرطة التسجيل حيث أشرف على مراجعة ما جاء في المحطة الأولى من الحوار في القاهرة وإعداده للنشر في صحيفة "الوحدة" عام 1992 الزميل حسين الجرباني مراسل صحيفة "الشرق الأوسط" في صنعاء ، الذي كان حينها سكرتيرا لتحرير صحيفة "الوحدة" ، فيما قام الزميل الصحفي المتقاعد في وكالة الأنباء اليمنية أحمد حسن العقربي، بالاشراف على ما تم تفريغه من أشرطة التسجيل في المحطة الثانية من الحوار بالعاصمة اليمنية صنعاء عام 2004م وأعداده للنشر في صحيفة (22 مايو) عام 2004م.

المحطة الأولى القاهرة ـ 1992

الحبيشي : أستاذ جمال البنا، باسم هيئة تحرير صحيفة "الوحدة" الأسبوعية التي تصدر في اليمن، أحييك تحية حارة.. ويسعدنا جداً أن نتحاور معكم في هذا اللقاء على تربة تجربتكم الفكرية.. وعلى تربة معرفتنا بنشاطكم الفكري البارز في ساحة الفكر الإسلامي، وبمساهماتكم المتميزة في إثراء هذا الفكر.

وصحيفتنا كما تعرفون، صحيفة تتسع لمختلف الآراء والأفكار .. ونطمح دائماً إلى أن نجعلها منبراً حراً للحوار الفكري.. ولتأصيل الديمقراطية والعقلانية والتعددية والوحدة في حياتنا السياسية والفكرية.. وقد اتجهنا خلال الشهور الأخيرة نحو آفاق أوسع على هذا الطريق وذلك من خلال إجراء حوارات فكرية مع عدد كبير من السياسيين والمفكرين في اليمن والوطن العربي.. ويشرّفنّا أن تكونوا بين هذه الكوكبة من العقول التي سبق لنا أن حاورناها.

البنا : شكرا يا أخي وبارك الله فيكم.. وأحيي فيكم صحيفة "الوحدة" التي تابعت مؤخراً بواسطة بعض الأصدقاء في اليمن والقاهرة جانباً من نشاطها ومحتوياتها وأعجبني نهجها وسعة افقها.. وأحيي أيضاً هذا الاتجاه الجديد في الصحافة العربية حيث تسعى صحيفتكم فعلاً لأنّ تكون منبراً لحوار الآراء والأفكار المتباينة.. وأن تجري الحوارات مع مختلف المفكرين.. فهذا هو ما نحتاجه بصورة ملحة.. أن تُعرض الآراء جميعها.. ثمّ ننتهي إلى الاختيار والتمحيص والوعي الأمثل.

الحبيشي : حوارنا معكم يا أستاذ جمال سينطلق – كما قلت سابقاً – من تجربتكم الفكرية المتميزة .. ولا توجد لدينا أحكام أو أسئلة جاهزة.. ومن هنا نراهن على أن يكون الحوار حيوياً.

البنا : وأنا واثق من ذلك أيضاً بعون الله.

إنّهم لا يريدون الإنسان

الحبيشي : أستاذ جمال من خلال متابعتي الشخصية وقراءاتي لما تيسر لي من أعمالكم الكثيرة، لاحظت تميزكم عن غيركم من المفكرين الإسلاميين في تناول القضايا التي تخص المجتمع العربي والإسلامي.. ولاحظت أنّكم بأعمالكم الفكرية التي أتيحت لي فرصة الاطلاع عليها تسدّون جانباً من الفراغ الكبير في المكتبة الإسلامية وخصوصاً لجهة القاعدة العريضة في المجتمع الإسلامي المعاصر، وهي العمال والقوى المنتجة والشباب والمرأة .

بهذا الصدد أسمح لي يا أستاذ جمال أنّ أشير إلى أنّ جزءاً كبيراً من الأعمال الفكرية التي تميّزت بها الحركات الإسلامية طوال العقدين الأخيرين.. ولربما طوال العقود الأخيرة منذ انهيار الخلافة العثمانية تركز على قضايا الدعوة لإقامة الدولة الدينية التي ستتولى تطبيق الشريعة الاسلامية بحسب تفسير الفقهاء الأسلاف لـ (الكتاب والسنة) ، مع تغليب واضح للسنة القولية والروايات التي إختلف حولها المسلمون والفقهاء لجهة القول بوجود ما تسمى بالأحاديث والروايات الصحيحة والأحاديث والروايات الضعيفة ، ناهيك عن مخالفة بعض الروايات التي يقال انها صحيحة ومجمع عليها للتعاليم التي وردت في القرآن الكريم عن طريق الوحي الذي نقله الى المسلمين رسول الله عليه الصلاة والسلام صافيا من أي تحريف .. وهو ما يمكن ملاحظته عند فحص هذه المخالفات ليس فقط بميزان العقل بل وبميزان القرآن نفسه .. مع الأخذ بعين الاعتبار ان رسول الله نهى عن تدوين السنة القولية حتى لا تختلط بالقرآن أو تضاف اليه ، بينما يصر بعض الفقهاء الأسلاف الذين يعارضون مدرسة أهل الرأي والقياس على وجوب الإلتزام بأولوية النقل، وعدم الإحتكام للعقل في فحص الروايات التي تتعارض مع نصوص القرآن الكريم ، وصولا الى تكفير كل من لا يلتزم بتغليب النقل على العقل بتهمة إنكار السنة.. مع كل مارافق النقل من شبهات وتناقضات أثارت ولازالت تثير الكثير من الإشكاليات المتصلة بحاجة المسلمين الى تقديم إجابات جديدة على الأسئلة غير المسبوقة التي تطرحها الحياة المعاصرة بصورة مستمرة في ضوء المتغيرات والتحولات التي أفرزتها الحضارة الحديثة منذ بدء الثورة الصناعية الأولى والثانية والثالثة خلال القرون الأربعة المنصرمة .. وصولاً إلى مرحلتها الراهنة في الألفية الثالثة التي تتميز بتحولات وإنجازات ثورة تكنولوجيا الإتصالات والمعلومات في هذه الحقبة من مسار تطور الحضارة البشرية، والتي أصبحت القوة الحاسمة فيها للمعرفة العلمية ولمن يمتلك ناصية قيادتها والتأثير فيها .

ما من شك في أن جماعات الإسلام السياسي تعرضت لإنتقادات عديدة من معارضيها الذين يتهمونها بأنّها لا تفكر بغير الاستيلاء على السلطة وإعادة الخلافة.. وبأنّها لا تقدم حلولاً ورؤى واقعية للمسائل الاقتصادية..الأمر الذي يفسرمحاولاتها الرد على هذه الإنتقادات من خلال التوجه سواء على الصعيد النظري أو على الصعيد العملي إلى بعض المجالات الاقتصادية والمالية بعيداً عن المفاعيل الاقتصادية المتعلقة بالقاعدة العريضة للمجتمع وتحديداً اقتصاديات العمل.

بتعبير أوضح كان اتجاه الحركة الإسلامية السياسية فكرياً وعملياً خلال الفترة الأخيرة يكرر ما فشل فيه الإقتصاد الإشتراكي عندما حاول تغليب الإيديولوجيا على القوانين الموضوعية التي تحرك رأس المال .. ومن أبرز تجليات هذا الاتجاه الأيديولوجي لقوى الاسلام السياسي هو الاهتمام بإنشاء المصارف الإسلامية والشركات الإسلامية لتوظيف رؤوس الأموال تحت دعاوى محاربة الربا وتنزيه رأس المال .. بينما لا نجد أثراً لمثل هذه التوجهات نحو تحرير العمل وتطويره وحل مشاكله وتناقضاته المعقدة وتنظيم عَلاقته برأس المال ومفاعيل الانتاج والإستهلاك والأسواق في عالم يواجه تحديات التكامل والشراكة تحت تأثير منجزات ثورة تكنولوجيا الإتصالات والمعلومات.

وبصرف النظر عن تقييم المحصلة الهزيلة لتجارب المصارف الإسلامية وشركات توظيف رؤوس الأموال وما رافقها من انحرافات وفضائح وتناقضات لم تعُد خافية على أحد، خصوصاً وأنّها كانت ولا زالت تقوم بإيداع أموال المودعين في البنوك الغربية وتأخذ منها فوائد ربوية وتشترك معها في أعمال غير قانونية وغير أخلاقية .. كما تنشط ايضاً في شراء أذونات الخزانة العربية لتمويل الموازنات الحكومية بفوائد .. بالإضافة إلى الفشل الاقتصادي الذي لحق بنشاطها الاستثماري رغم ضحالته، والذي الحق بعد ذلك أضراراً فادحة بمصالح المودعين ، مما دفع الحكومة المصرية والبرلمان المصري إلى إصدار قانون بتصفية هذه الشركات قبل نهاية العام الجاري 1992م وضمان حقوق المودعين المنكوبين وإصدار قوانين وقرارات أخرى تحد من نشاط المصارف الإسلامية وتخضعها للرقابة ، على نحو ما حدث في بلدان عربية أخرى ، علماً بأنّ كل هذه الإجراءات تمت بضغط من الرأي العام المصري وسط صراخ ضحايا شركات الرّبح الحلال الاسلامية الذين كانوا قد اندفعوا بحماس شديد للدخول في هذه التجارب خلال السبعينات وأوائل الثمانينات ، تحت تأثير الدعاية التي قامت بها الحركات الإسلامية السياسية بهدف تقديم نموذجها للدولة الاسلامية الموعودة !!

من حقك علينا يا أستاذ جمال القول بأنّنا لو لم نطلع على أعمالكم التي قرأناها لقلنا إنّ الحركات الإسلامية السياسية غائبة تماماً عن هذا الجانب.. علماً بأنكم تنشطون في هذا الجانب بصورة مستقلة وبدون أية عَلاقة منظمة مع أي من الحركات السّياسية الإسلامية داخل مصرَ أو خارجها بحسب معلوماتنا.

في أعمالكم التي أُتيحت لنا فرصة التعرف عليها وقراءاتها والاستمتاع بها – وأنا لا أنافقكم في قولي هذا – لاحظنا اهتمامكم بقضايا العمال وحركتهم النقابية وبتشريعات العمل والضمان الاجتماعي.. الخ.. وقبل قليل سعدت كثيراً بحصولي على كتاب جديد لكم هو "الإسلام والحركة النقابية".

القول بأنّ القرآن صالح لكل زمان ومكان يضع أمام العقل واجبات كبيرة ودوراً طليعياً.. بمعنى أننا يجب أن نفهم القرآن بعقولنا.. ونعرف رسالته بعقولنا.. وهذا يعني أنّ الذين شرحوه وعملوا على تأويله في القرن الأول الهجري وغيره من القرون الأولى لا يمكن أن يشرحوه ويعملوا على تأويله في القرن العشرين أو القرن الثلاثين.

في البدء – أرجو من الأستاذ البنا – حتى لا يتشعب الحديث حول هذه القضية، أن يشرح لنا رحلته مع قضايا العمال وقضايا الحركة النقابية سواء في مجال الإبداع الفكري أو مجال الممارسة العملية؟

البنا : فيما يتعلق برحلتي الفكرية وانتهائي إلى العمال.. أود أن أشير قبل كل شيء إلى حقيقة مُرّة في واقع الحال تمثل أزمة المفكر المسلم في العصر الحديث عندما تهاجمه الشكوك إزاء ما يتم توارثه من معارف ومن تقاليد.. وعندما يجد أنّ بعض الآراء الحديثة وبعض نتائج الدراسات في العصر الحديث تعارض شيئاً ما في هذه الموروثات ، ويصبح عليه أن يقوم ويحدد اختياراته بالضبط.

إنّها رحلة طويلة فعلاً.. يمكن استغرقت أكثر من أربعين عاماً.. انتهينا فيها إلى أنّ الإسلام هو في النهاية عقيدتنا الدينية واختيارنا الحضاري.. ومن أجل هذا فنحن نعتز به أكثر مما يعتز به كثيرون ممن يرون أنّهم أهل الإسلام وعلماؤه وحُماته.

كان علينا أولاً أن نفهم الإسلام الفهم الرشيد في ضوء أصول الإسلام نفسها وتطورات العصر الحديث.. ولم نجد مطلقاً أي تعارض ما بين الأصول الإسلامية وأفضل ما انتهت إليه الحضارة الحديثة، وإنما المشكلة كلها هي في فهم المسلمين للإسلام.. ليس في الإسلام مشكلة.. المشكلة هي في المسلمين.

بعد أن انتهينا إلى فهم سليم ورشيد للإسلام فيما نرى، كانت النقلة من الإسلام إلى العنصر البشري.. لأنّ الإسلام أنزل للناس، والقرآن أنزل للناس.. فالناس هم الهدف في حقيقة الحال.. والله تعالى في غنيً عن الناس ولا تنفعه طاعة ولا تضره معصية.. وإنّما أنزلت الأديان وأُنزلت الكُتب لهداية الناس في حقيقة الحال.. فكانت النتيجة إننا نفهم أنّ نقطة الانطلاق هو الإنسان.. وفي بعض كتبنا لعلك لاحظت يا أستاذ أحمد إنني قلت بكل وضوح وبدون تردد : ((إنّ الإسلام يريد الإنسان ولكن الفقهاء يريدون الإسلام))!!

الحبيشي (مقاطعاً) : لماذا يريدون الإسلام وليس الإنسان؟

البنا : لأنّهم اعتبروا أنفسهم سدنة وأحباراً و رهباناً للإسلام .. ثمّ سؤال آخر هو ماذا سيكسبون إذا أرادوا الإنسان؟

(يضحك مبدياً تعجبه واستغرابه ثم يجيب) :

لن يكسبوا شيئاً!! ولكن لو أنّهم استطاعوا تكوين هيكل إسلامي هم سدنته وأحباره و رهبانه سيصبحون هم أصحاب الأمر، ويصبح لهم كيان كبير.. وساعدتهم على ذلك بعض التطورات السياسية الأولى في التاريخ الإسلامي بعد أن تحولت الخلافة الراشدة ألى ملك وراثي عضوض.. فالنقلة الكبيرة جداً هي الانتقال إلى الإنسان.. والفهم أنّ الإسلام إنما أنزل للإنسان وليرفع عنه الأغلال التي كانت تكبله.. ولينقله من الظلمات إلى النور وهذه معان واضحة جداً في الإسلام.. هذه هي نقلة مهمة في هدف الإسلام وهو الإنسان.. الإسلام جعل من العمل معياراً للإيمان ومصداقاً له.. ومعياراً للثواب والعقاب في الآخرة.. يعني كل المسلمين يمكن أن يقولوا «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ويمكن أيضاً تأدية الشعائر الدينية فيدخلون في حظيرة الإسلام.. ولكن ما الذي سيميز بينهم؟

في حقيقة الحال أنّ العمل هو الذي سيميز بينهم.. والعمل هنا هو مصداق الإيمان.. هو ما يمكن أن نمتحن به إيمان المؤمنين.

من ناحية أخرى نجد أنّ العمل هو معيار الثواب والعقاب في الآخرة.. فنحن سنحاسب في الآخرة على ماذا كنّا نفعل.. وسنجزى بما كنّا نفعل وسيدخلنا النار ما كنا نفعل.

هذا واضح جداً في مئات الآيات.. «هل تجزون إلا ما كنتم تعملون».. « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره».. كل الحساب في الآخرة سيدور حول العمل.

من هنا دخلنا إلى العمل.. إلى العمل العام كما قلنا في بعض مواد الاتحاد الإسلامي الدولي للعمل.. أنّ العمل عندنا هو بحسب المدلول القرآني العمل الصالح.. أي عمل صالح سواء كان عمل عامل في مصنع.. عملاً مأجوراً .. عملاً حرفياً.. عمل خير .. كل هذا يدخل في الإطار الواسع لمعنى العمل.

الحبيشي : وماذا عن الإنسان العامل .. الإنسان المنتج؟

البنا : من هذا الإطار الواسع دخلنا أيضاً مرحلة أخرى من التخصص إلى العمال المنتجين الذين يقومون بالعمل بنوع من التخصص.. خصوصاً أنّ العصر الحديث يختلفُ عن العصر القديم.

العصر الحديث معقد وكثير المطالب.. والحياة فيه تختلف عن الحياة في العصور الأولى وحتى في العصور الوسطى.. يعني الحياة المتقشفة.

الحياة البدائية الأولى لم تكن تتطلب احتياجات معيّنة كالتي تتطلبها حياتنا اليوم .. الرسول صلى الله عليه وسلّم ما كان يوقد في بيته ناراً لمدة شهرين.. ونجد أنّ البيوت والخيام في ذلك الوقت ما كان فيها لا دورة مياه ولا تجهيزات منزلية كالتي توجد اليوم في بيوتنا.. كانت حياتهم بسيطة جداً.. والحاجات فيها محدودة.

هذه الظروف اختلفت اليوم اختلافاً كبيراً.. وهذا العصر الذي نعيش فيه متعدد الاحتياجات .. ولا يمكن في عصرنا للكرامة الإنسانية أن تُصان إلا بتوافر هذه الاحتياجات .. لأنّ هذا هو منطق العصر.. يعني الإنسان إذا لم تستكمل له احتياجاته المعينة يمكن أن يستشعر نوعاً من المهانة، أو الضعة ، أو يوضع في مكان دوني عن الآخرين .. لذا من الضروري أن نعنى بالعمل فعلاً، لأنّه هو أساس العصر، من الذي يقوم بالعمل؟؟ .. انهم العمال.

العمال لهم قضايا تتعلق بهم كعمال، الهيئات التي تمثل العمال كعمال وتعالج قضاياهم المهنية هي النقابات، فكان طبيعياً جداً الانتقال في فهمي الإسلامي من الفهم المجرد ، من الفهم العبادي .. من فهم "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون" بالمعنى التقليدي الضيق إلى معنى أنّ الله تعالى "غني عن العالمين" ، ولا تضره معصية ولا تنفعه طاعة، وإنّما كل الهدف هو هداية الإنسان.. وأنّ المطلب الأخير هو الإنسان.

أسلاف النقابات

من الإنسان، ثمّ إلى العمل، ثمّ إلى العمال، كانت مراحل ومحطات على مسيرة واحدة في حقيقة الحال، وكلها مرتبطة بالإسلام ، ليس فيها أي جانب يخالف الإسلام ، أو يُعد غريباً عليه، حتى كلمة "نقابة" .. حتى كلمة "نقيب" تجدها في القرآن .. وتجد الرسول (صلى الله عليه وسلّم) قال للأنصار : "اختاروا لي أثني عشر نقيباً" .. ونجد أيضاً أنّه في بعض العصور الإسلامية كان هناك هيئات يطلق عليها "الأصناف" وهي اسلاف النقابات، وهذه الأصناف كانت منتشرة في العصر العباسي ، وكانت جزءاً لا يتجزأ من نسيج المجتمع الإسلامي وقتئذ.

كانت الأصناف تقوم على أساس الحرفة .. وكان كل صنف يرتبط بالمجتمع برباطين رباط روحي ديني.. وهو أنّ لكل صنف شيخاً ، أو راعياً من الصحابة أو من الأولياء أو من شيوخ الصوفية .. ورباط آخر مدني .. رباط بالمحتسب.. وهو الموظف الذي يقوم بعمليات التفتيش على الأسواق، والتأكد من سلامة الأداء وصحة الموازين... الخ.

إذن كانت الأصناف هي أسلاف النقابات .. وهناك من المؤرخين من يرى أنّ النظم التي يقولون عنها "الجلتس" أي الطوائف الحرفية في إنجلترا، إنما نقلت عن الأصناف الإسلامية .. لأنّه لا يجد أثراً لوجود هذه الطوائف إلا بعد الحرب الصليبية الأولى، عندما تعرفت أوروبا على بعض النظم التي كانت موجودة في المجتمع الإسلامي.

ليست فكرة النقابة ببعيدة عن الإسلام،.. نجد اللفظة في القرآن .. نجد اللفظة في الحديث.. نجد أنّ هناك نقابة بالمدلول الحديث.. نجد أنّ هناك هيئات لم تكن تحمل اسم نقابات، ولكنها كانت نقابات، وهي "الأصناف" .. فالموضوع كله ليس غريباً عن الإسلام في حقيقته، ولكنه غريب عن الفكر الإسلامي المعاصر.. الفكر السلفي الفقهي التقليدي كان غريباً عن الإسلام الحي .. وكان من المفارقات إننا نجد في الهيئات الإسلامية عزوفاً عن النقابات!!!.

و لا أذيع سراً عندما أقول أن أحد قادة الأخوان المسلمين السودانيين قال لي ذات يوم : ((كنّا ننظر إلى النقابات كما لو كانت رجساً من عمل الشيطان)) "!!!، وهذا في الحقيقة يمثل تماماً اتجاه الحركات الإسلامية نحو النقابات حتى الثمانينات.

الحبيشي : اسمح لي أستاذ جمال، عند هذه النقطة بالضبط ، أن أثير إشكالية مهمة .. اعتقد أنّ بعض الإخوان المسلمين السودانيين الذين قالوا لك إنّ النقابات هي رجسٌ من عمل الشيطان لم يصدروا هذا الرأي من فراغ .. ولربما كانو تحت تأثير نمط التفكير السلفي الذي ساد الفكر الإسلامي في القرن العشرين قبل أن يتحرر الإخوان المسلمون في السودان من هيمنة نمط التفكير السلفي النقلي المعادي للعقل بفعل الصراعات التي انفجرت بينهم بعد وصولهم الى السلطة وإختلافهم حول النفوذ والمصالح.. وأنا أتكلم عن الفكر الإسلامي في القرن العشرين، أعتقد أنّ هذا النمط من التفكير السلفي يجد جذوراً له في التفكير الإسلامي القديم .. حتى "الأصناف، التي أشرت إليها، والتي وجدت أشكال منها في العصر العباسي، هذه "الأصناف" تعرّضت للضرب .. وارتبط بل تزامن ضربها في بعض العهود العباسية بتصفية الفلسفة الإسلامية .. بتصفية الحركات الفكرية ذات الاتجاه العقلي النقدي الحر.. وهي بقدر ما كانت ـ كما تقول لنا كتب التاريخ ـ تجمعات ذات طابع مهني تخصصي، بقدر ما كانت في الوقت نفسه تنزع نحو المشاركة في الحياة الفكرية في العصر العباسي وخصوصاً في تلك الحقبة التي وُصفت بالعصر الذهبي .. حين كانت الحركات الفكرية في العصر العباسي، شأنها في ذلك شأن الحركات الفكرية في العصر الأموي جزءاً من حالة الحراك السياسي والاجتماعي الذي شهده المجتمع الإسلامي عندما ارتبطت – أي حالة الحراك – بالصراع بين الاستبداد وبين أنصار الحرية.. وهنا تأتي مقولتك الرائعة "إنّ الإسلام يريد الإنسان ولكن الفقهاء يريدون الإسلام" .. وهنا نختلف في مفهومنا للإسلام.. وأنا لا أريد أن أناقشك في هذه القضية، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ السلفية.. أو الأصولية السلفية الموجودة في الفكر الإسلامي في القرن العشرين والتي لازلنا نواجه كثيراً من المصاعب في التعامل معها .. تجد أساساً لها في التاريخ الإسلامي سواءً، التاريخ الفكري، أو التاريخ السياسي.. وبالتالي فإنّ الموقف من هذا التاريخ يتصل اتصالاً شديداً جداً بمسار الحركة الإسلامية السياسية في القرن العشرين، وبمسار الفكر العربي بشكل عام ، باعتبار أنّ الحركة الإسلامية واحدة من مكوّنات الفكر العربي، وواحدة من قوى الحركة العربية.

ما هو في تقديرك ـ يا أستاذ جمال ـ الموقف السليم من إشكالية التناقض بين السلفية، وبين الواقعية ، ولا أقول أنا بين المعاصرة والسلفية. لأننا ننطلق من واقع، هو جزء من عصرنا وجزء من حركتنا بما في ذلك الإشكالية التي أشرت إليها بأنّ بعض قادة الأخوان المسلمين السودانيين قالوا لك في يوم ما : ((كنا نعتقد أنّ النقابات رجسٌ من عمل الشيطان)): وهذا كما قلت له جذوره في الفهم المترسب في الوعي العام حول التاريخ الإسلامي.. وهو فهم تم اكتسابه عن طريق التلقين والتلقي وإضفاء طابع القداسة على التاريخ وكتب التاريخ والفقه بعيداً عن النقد.

في تقديرك الشخصي، كيف يمكن أن نُعالج هذه الإشكالية؟؟

البنا : هي في حقيقة الحال من أقوى العقبات، والمعوقات في سبيل انطلاق الفكر الإسلامي.. ومع هذا فليس هناك أبداً أي صعوبة في أن نفهم أنّه لا يُعد خروجاً عن الإسلام أن نعود رأساً إلى الكتاب، وإلى الصحيح الثابت من السنة: وأنه من المفارقات الغريبة، إننا عندما ندعو الناس إلى الكتاب مباشرة، وإلى السنة، فإننا نتعرض لاتهامات شديدة جداً .. لأنّ الذي حدث، أن صدئت العقول، وخملت الهمم، وعجزت العزائم عن الإبداع وعن التفكير الأصيل، وعن الرجوع إلى المنابع .. وقنعنا بما تركه لنا الآباء مما يحمل اسم السلفية.

الأسلاف كانئناً ما كانوا، ونحن نعتز بهم، وما من شك أنّهم كانوا قمماً في عصورهم السالفة ولكن هذا لا ينفيً أمرين :

الأول : أنّهم ليسوا معصومين، وأنّ قدراتهم مهما كانت فإنّها ليست مطلقة ولا نهائية.. والثاني : أنهم في نهاية المطاف أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصرنا!!

هناك سيف مصلت على أعناقنا، يقال هل أنت أقدر من أحمد بن حنبل على فهم الحديث؟!! هل أنت أكثر من أبي حامد الغزالي أو الشافعي أو بن تيمية فهماً للفقه؟!!... إلى آخر هذه الأسئلة العقيمة.

فنحن قد لا نكون اقدر، ولكن لدينا من الوسائل والمعارف الواسعة الآن ما لم يتوافر لأحمد بن حنبل وبن تيمية وابن القيم أو غيرهم .. في الزمن القديم كان الفقيه يرحل من المدينة إلى مصر للتثبت والتأكد من حديث، كان الخلاف بين الفقهاء كلهم يدور حول معرفة فقيه لحديث .. وجاء فقيه آخر بحديث مخالف له .. كان الحكم يمكن أن يتغير سنة بعد أخرى، وإذا علم الفقيه حديثاً في هذه السنة ما لم يكن قد علمه في السنة الماضية أعاد أحكامه من جديد..وبعضهم كان يتمسك بأحكامه السابقة.